ثم يأتي تعليل الاستنكار هنا مجسَّداً في الرابط (وقد) ولا نجد في موضوع هذا التعليل أي نوع من التخويف أو الترهيب أو ما يوحي به، بل إن ألفاظًا من قبيل (نوراً، سراجًا، أنبتكم نباتًا، بساطًا) كلها ألفاظ مشرقة رقيقة تبسط أكثر مما تقبض وتمنح أكثر مما تقطع، حتى الأجسام المادية المتمثلة فيها قدرة الله ويفهم أنها أسباب أن يتوقع منهم رجاء هذا الوقار ليست بألفاظ خشنة أو مخيفة: (الخلق، القمر، الشمس، الأرض، الإنبات، النبات).

ولننظر إلى تركيب الجملة التي جاء الرجاء جزءًا منها؛ ففي قالب استفهام استنكاري كان نفي الرجاء وخصص له مفعولاً الوقار، والاستفهام يعد من التراكيب السلبية لا الإيجابية، والسلب مع سلب الرجاء يعطي دلالة الإيجاب، القاعدة المنطقية تقول: (-)×(-) = (+)

فسياق الرجاء هنا في حقيقة الأمر سياق إيجابي لا سلبي على الرغم مما يوحي به النظر السريع، فكأن ثمة إلغاء لقيمة النفي هنا.

وهي القيمة التي تقول قاعدة الفرَّاء إن الرجاء لا يكون بمعنى الخوف إلا في وجودها.

فكأنَّا باللفظ هنا مثبت لا منفي، وكأنه لا يسعنا تفسيره على معنى الخوف، ليس بسبب التزامنا بقاعدة الفرَّاء، فنحن لم نفترض أنها قاعدة ثابتة ومؤكدة، ومعيار الحسم والفهم عندنا هو النص، بل لأن سياق المعنى أيضًا لا يتلاءم أبدًا مع معنى الخوف، ولم نجد عليه دليلاً ولا له مؤشرًا في الألفاظ أو التراكيب.

فإذا نفينا الآن معنى الخوف، فهل يؤدي ذلك إلى أن يكون معنى الرجاء هنا الطمع مع الأمل وتوقع الخير؟

يقول أبو حيان[1]: «وقيل: لا تأملون له توقيرًا: أي تعظيمًا.

قال الزمخشري: والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال ما يكون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب، ولله [يعني اللفظ] بيان للموقِّر، ولو تأخَّر لكان صلة. أو لا تخافون لله حلمًا وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا.

وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمةً. وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقر إذا ثبت واستقر. انتهى.

---

(١) نفسه: ص٨٢ ـ ٨٣.